وقد رأى بعض العقلاء ان احسن حل لمسألة اللغة العربية في المدارس الرسمية واسهله عاقبة على اجيال الدولة المختلفة هو ان يجعل تدريس العلوم المادية كلها باللغة العربية كالطبيعيات والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وان تجعل العلوم السياسية كلها باللغة التركية كالجغرافيا والتاريخ والاقتصاد والحقوق والاجتماع وبذلك لا يقع حيف على العرب ولم نصف الدولة او يزيدون والفتهم افضليتهم لجملة سائر العناصر العثمانية . والمستقبل كفيل بحل هذه المعضلة العلمية .

ضراء العلماء

ولقد الاصلاح ينادي بدعوى لا بأس به الا وهو الاستعداد الفطري لجهادية العلمية وابناء العلم والتهذيب من رجال الامة والبقية الباقية منهم باهضته اما بدافع جهلهم وتعصبهم او لعدم الطباقه مع ما يدعون اليه من التقاليد التي وجدوا عليها آباءهم وهذا تعارضه قبل ان يدرج من عشه فوتان متنافستان : الواحدة تدعى لانانه والاخرى تعمل على تلافيه ويساعد الثانية في الغالب مال وخول في ملك ضخم البنيان وجاه منبسط الظلال . . .

بين هاتين القوتين تشتعل حرب شعواء يضطرب لها فانك الاصلاح ولا بد ان تتجلى وقد ازهق الحق الباطل لان القوة الحقيقية جانبه . ولقوة الحق حركة كبرى في ميدان تنازع البقاء

الا وان انصار الباطل كانوا وما زالوا في كل عصر ومصر يوقظون الفتنة ويضرمون جذوة الثورة فيقومون بدعوى الغيرة على الدين مرة وخدمة النفع العام تارة اخرى وما يريدون بذلك كما يشهد الحق الا منافعهم الشخصية فهي قبلة آمالهم التي يولون شطرها وكعبة اميالهم التي يسوقون نحوها مطايا همهم وهممهم .

وليس اضر شيئاً على العلم والدين من هؤلاء فبجهلهم كسد سوق العلم ورابحت بضاعة الجهل المزجاة وهم بما يختلقونه من الاوهام مثلوا الدين بأقبح صورة مشوهة بغرضها الناظر فرار السليم من الاجرب وقحموا الملحدين مجالا واسعا امام الاغمار فاخذوا يسلقونه بالسنة حداد ويمزقونه بغير المزلة التي وضعها السلف الصالح أيام كانوا على بيضاء نقية لا يضرهم من خالفهم اذا كانوا هم المهتدين .

منيت الامم الاسلامية جمعاء بمثل هؤلاء منذ ثلاثة عشر قرناً او يزيد - بيد انه مع وجود هذه الظلمة بين ظهرانيهم وارتفاع جلبتهم وضوضائهم وتحليهم على الناس بشعار الاماني الدينية في سبب تلك المواصف لم تعدم رجالاً توفرت على الاخذ بناصر الحق وسلبت زمامها رغبة في شد ازره عن تمحضوا للحق الخالص واغترفوا من معينه وشربوا وكانت القوة بحدهم . الحقون بها اعداء الحق الاقوياء وكشاوبهم والعلقلهم وان تألبت عليهم الجموع الكثيفة وتحالفت امامهم الصفوف كالبنيان المرصوص ممن تجمعهم جامعة الجهل تحت راية الخداع والتمويه .

***

شهد شيخنا التاريخ منذ نشأة الفكر البشري هذه الاعمال البربرية ولم تزل صفحته ندية بعد فلم يخف ما اريق من الدماء في سبيل نصرة الحق ولم يجفوا اذرف من الدموع الصاعدة المصدر والمورد على تلك الحقول الرحيبة التي ينا ترصد فضاء السماء فسيح اذاها تفحص الحماق هذه الارض وتجتهد في امتكناه اسرار الحياة المطوية على كنفل تلك الطبقات الصماء . وهاهو قد حشد في صدره الوفاء مؤلفة من ذهبوا ضحية الجهل والحقد ما لو جمع وأفرد بمؤلفات خاصة لاخرجت لنا من مجلدات ضخمة في محكمة التفتيش الاسلامية الكبرى »

وليس بالامر القليل ماحل الامة المسكينة من النكبات التي يسود لها وجه الاسلام فكم كفر من هو اشد تمسكا بدين الله وانوا على من هو اعظم اعتصاما بحبله المتين وحكم بالردة على من كان يحارب الدهريين وضلل من كان يجاهد في سبيل الشرك واضطهد من كان يعمل فكره للاجتهاد والعمل في كتاب الله وسنة رسوله .

ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد فلم يتخطوا دائرة الانسانية فتنيلهم عباد الله الصالحون فجح تمثيل وصريعهم بالاسواط حتى تشل الاطراف او تعتل احدى الاعضاء فتفقد وظيفتها وسلخهم جلود هوم احياء مما لم يعهد نظيره الا بين ظهراني الامم البربرية في التوحش والهمجية .

واماي الآن كثير من امثال تلك الحوادث في بطون عدة من التواريخ التي تفيم تراجم مشاهير المشارقة والمغاربة آتى على شيء منها مقتصراً على رجل الغرب الاول ممن ناوا الازلام وقاوموا من معاصريهم الا لاتي لفكرة اصلاحية او القيام بمشروع جديد

ليعلم ان التاريخ هو المحشر الذي ينسل اليه الناس من كل حدب وانه لا يفلت احداً دون ان تناقشه الحساب :

هذا مالك بن انس (١) سعي به الى جعفر بن علي بن عم ابي جعفر المنصور فدعا به وجرده وضربه سبعين سوطاً ومدت يداه حتى انخلع كتفاه وذلك جزاء قوله الحق حين سئل عن مبايعة محمد بن عبدالله بن حسن وقوله له : «ان في اعناقنا مبايعة ابي جعفر» فقال : «انما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين» فسرعوا الناس الى محمد فسمى به فضرب لذلك .

قال صاحب الفلاكة : «ثم لم يزل بعد في علو ورفعة كأنما كانت ذلك الياط جلياً تحلى بها» . وهذا ابو حنيفة النعمان الفقيه الكوفي ضربه يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري وكان امير العراقين مائة سوط وعشرة اسواط وكل يوم عشرة اسواط ايضاً وذلك ما اراده للقضاء ايام مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فابى وبقي على الامتناع ومضى فتوفي في السجن في احد القولين . وقيل : ان سبب سجنه الايدي ما ذكره الزمخشري وهو من كبار الحنفية في تفسير آية «لا ينال عهدي الظالمين» ان ابا حنيفة رحمه الله كان يفتي سراً بوجوب نصرة زيد بن علي رضوان الله عليهما وحمل المال اليه والخروج معه على الناس فتطلب المنصور بالاعلام والخليفة كالدوابق واشباهه . وقالت له امرأة : اشرت علي اني بالخروج مع ابراهيم ومحمد ابني عبدالله بن الحسن حتى قتل فقال : «ليتني مكان ابنك» وكان يقول في المنصور واشياعه : «لو ارادوا بناء مسجد وارادوني على بناء آجره لما فعلت» اه . وحينئذ يعلم الباحث المدقق ان سبب موته امر سياسي .

ومثله احمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي ثم البغدادي امر المعتصم بضربه فأخذ وجيء بالمقنعين والسياط وضربه ضرباً مبرحاً حتى اغمي عليه وغاب عقله ثم امر بالملاذ الى أهله فنقل وهو لا يشعر وذلك انه ابى ان يقول خلاف ما يعلم او يعتقد حين اجلسه المعتصم ودعاه الى القول بخلق القرآن فامتنع وقال للمعتصم «ما قال ذلك ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد دعا الى شهادة ان لا اله الا الله وانا اشهد ان لا اله الا الله وان القرآن كلام الله ومن كلام الله فقد كفر» . فناظره احمد بن ابي دؤاد وغيره وانكروا عليه الآثار التي اوردها وقالوا للمعتصم :

(١) اعتمدنا في هذه النقول على كتاب (الفلاكة والمفلوكون)

« هذا كفرك يا كفرنا » وقال له اسحق بن ابراهيم نائب بغداد : « يا امير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة ان تخلي سبيله ويقلب عليك نتين » فعند ذلك حمي واشتد غضبه وكان ما كان .

وكذلك يوسف بن يحيى البويطي صاحب الامام الشافعي كان الشافعي يسأل عن الشيء فيجيب عليه فاذا اجاب قال : « هو فكما اجاب » وقال عنه الشافعي : « هو لساني » حمل الى بغداد في ايام الواثق بالله من مصر وفي عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد فيها طوق وزنه اربعون رطلاً واراد به على القول بخلق القرآن فلم يجب ومات بالسجن في تيوده .

وسم الى هؤلاء الائمة من السلاطين العلم والعمل من لم يرفعوا لاعمال المفسدين رأساً ولم يجعلوا لها وزناً وليس عالم اليوم من المصائب بافل مما نال هؤلاء كابن تيمية والغزالي والنسائي وابن رشد وابن حزم فقد جعل حسد الجهلة الاغمار من معاصري الاخيرين ان تألبوا عليه وكادوه واستظهروا عليه بالامراء فاحرقوا كتبه الثمينة ومصنفاته وفي ذلك قال :

فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي ... تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينزل ان انزل ويدفن في قبري الخ ..

وانك لترى العجب العجاب حينما تأتي على تراجم المشاهير وما تجد في غضونها من الحزن والاحن التي قصد من ايقاعها بهم غمط فضلهم والحط من كرامتهم ووضعهم امام سيل شهرتهم الجارف سوراً من الجمود اركانه التعصب الاعمى ودعائمه الجهل المطبق .

ولقد افضت ضراء العلماء والوقيعة بهم الى الطعن بالمذاهب وقيام طائفة على اخرى كلا لاح لها من الفرصة بارق . ومن ذلك قيام الاكابر على محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين (١) الملقب بلقب ابيه جمال الاسلام وحسدهم له فانهم خاصموه واستظهروا بالسلطان عليه وعلى اصحابه فصارت الاشعرية مقصودين بالاهانة والمنع عن الوعظ والتدريس وعن نقل من خطابة الجامع وقع من الحنفية طائفة أشربوا سوء قلوبهم الاشتغال والتشيع فجيلوا الى ولي الامر الازراء بمذهب الشافعي عموماً وبالاشعرية خصوصاً قال السبكي : « وهذه هي الفتنة التي طار شررها وطال ضررها وعظم خطبها

(١) طبقات الشافعية ج : ٣ ص ٨٦

وقام في اهل السنة خطيبها فان هذا الامر ادى الى التصريح بلعن اهل السنة في الجمع وتوظيف سبهم على المنابر وصار لابي الحسن الاشعري بها اسوة بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه واستغل اولئك في الجامع فقام ابو سهل في نصر السنة قياماً موزراً الخ . . .

ومما يجدر ذكره في هذا الباب من المتأخرين الشيخ عبد الغني النابلسي فان اهل الشام تألبوا عليه ووصموه ووصمات لم تكن من الشيخ رحمه الله في شيء . وما دفع اولئك الرعاع الا حسدهم لمنزلة الشيخ حتى اضطروه الى مغادرة دمشق والسكنى بالضاحية حيث دفن ثمة . وفي ذلك يقول من قصيدة مطلعها :

يا من تكلم فينا بالذي فيه ... وقعت في كف ضرغام وفي فيه

الى ان قال :

فقد جعلت الغيور الحق ملتزماً ... حيهات انك تنجو من ايادية
وان جهلت فما الكفر يعذر دو ... جهل لدى الشرع والشيطان باغيه
دم في ثوبك مقتولاً لسوف ترى ... من الذي منه فج الفعل يرديه
ولا تقل اي جرم للضعيف يرى ... فان للبيت رباً سوف يحميه
يا مسيئين اعراضاً محرمة ... بسوء ظن وتلبيس وتمويه
أهكذا ملة الاسلام تأمركم ... أم قد سلكتم من الاسلام في تيه
تباً لكم وثبور قد عاد بلعنكم ... والعبد مولاه في الاسداء يكفيه

وبعد فان التاريخ يعيد نفسه والحوادث لا تفتأ تتعاقب على مر الايام وان الحال صورة من الماضي وان مرأ عليه من مؤثرات التجديد ما ادخله في طور جديد ولا يخلو كل عصر من شرذمة نفاق واختلاق حتى في هذا العصر يعترضون كل عمل نافع يقوم به المصلحون في مصر وسورية والعراق وبعيبهم فيما يطلبون تلكم الرعاع الذين هم اتباع كل ناعق .

الا فليعلم اولئك الاغرار ان موت المصلحين في سبيل نصرة الحق بعث ونشور وان رمي الآخرين بالكفر والزندقة هو حياة لهم وذكرى . ولقد كانت لاولئك الجهلة الاشرار حياة مادية ولكن كانوا يتجرعون منها الحنظل ويموتون في كل يوم مراراً . وكانت لهؤلاء العلماء المصلحين شعلة حياة مادية اطفأها الحسدة فلت محلها حياة ادبية مملوءة ضياء ونوراً ! . .

دمشق — صلاح الدين القاسمي